الدفاع:

لعب المكان دوراً مهماً في الدفاع ففي الآيات التي نزلت بمكة فصياغاتها تنماز ب القوة، وبعرض المقول بوصفه قولاً لقريش بمعنى آخر هو مُتبناها، وكان القرآن جاداً في إثبات صحة القول / القرآن، ونفيه عن القائل / الرسول، وكذلك إثبات مصدره / الله، ونفيه عن القائل / الشاعر، وما دامت الآيات مكية فالمخاطب واضح / الكفار من قريش، لذا كانت تذهب إلى الدفاع بأسلوب الزجر ولتقصَّ تلك الآيات إذ يقول جل وعلا: " أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ"[1]. فمصدر القول واضح، المعنى منه نتربص به حوادث الدهر أي هو شاعر ومعه شعره إلى الزوال وهذه سنة نعرفها نحن، جرت على الشعراء من قبله.

إما في الآية الأخرى: " بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ"[1]. وها هم عادوا مرة أخرى للقول والإتهام فأضغاث الأحلام وتداخلها وإضطرابها هي كناية عن التشويش وعدم الوضوح، وليست ثمة فائدة مرجوة، وقولك أشبه بهذا، وأن لم يكن كذلك فهل كلام مفترى أي مُختَلق فهو ليس بذي مصدر وإنما خارج من الذات ولا يعول على صدقه، بل نراه شاعراً، إذ ثمة علاقة بين الحلم والافتراء والشعر منها وحدة المادة المستعملة / اللغة، ثم أن الثلاثة تجمع بينهما صفة الكذب أو لنقل التشويش والاختلاط وضبابية الرؤية، وبالتالي لا يُمكن الا عتقاد بصحة المقول عنك. ولأن العرب في صحراءها وفي عباداتها كان تميل إلى التعامل مع ما هو مجسد، ولأجل الاقتناع طالبت بآية، واللطيف هنا أوضح الله عنادهم وتناقضهم، إذ يبدو أنهم على معرفة بالرسل والمعجزات، فلماذا إذاً هذا الرفض والاستنكار إذا كانت السماء قد أرسلت رسلاً وأنتم تعرفون؟ كما نلحظ تعدد الصفات لموصوف واحد / الرسول، وهذا يُبين مدى إصرارهم، كما يُبين مدى تخبطهم النابع من عجزهم فهم النص الموصوف/ القرآن وأن ثمة إعجاز فيه لم يرد على مسامعهم من ذي قبل. فمرة هو حلم، وأخرى هو كلام مُفترى، وأخيرة هو شعر لشاعر، وعلى ما أوضح من إتفاق، فإنّ ثمة إختلاف، فالحلم في واقع آخر، والكلام غير الشعر من حيث الترتيب، وهنا لما تزل الحيرةّ ملازمةّ لعقولهم.

ثم يمضون في قولهم وإصرارهم على الصفة ذاتها إذ تقول الآية الكريمة: " وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ"[1]. فما هذا الترك الذي يقصدونه؟ أهو ترك عبادة أم ترك سيادة؟ إذ يبدو أن انتزاع الآلهة منهم يُبنى عليه أفول السيادة، وكأنهم يحاولون التغطية على فكرة تمسكهم بالسيادة عن طريق المعتقد الديني وهذا أمر خطير ويُمثل منطقة محظورة داخل النفس البشرية ليس من السهل الولوج إليها والت لاعب بها ،فأوهموا الناس بأن ما يعتنقون مهدد ، وهذا يعني بحال تغيره سوف تتغير معه الكثير من الاعتقادات في الجانب الاجتماعي والاقتصادي وجميع مستويات العلا قات العامة والخاصة ، ولتحقيق دعوى عدم الترك ذهبوا لإضافة صفة الجنون للشاعر الذي ينماز بأن اللغة وسيلته الوحيدة وهو بالتالي مجنون يهذي ، فيبدو أنهم أرادوا تعقيد الأمر في جعله شاعراً خارجاً حتى عن أصول القول، إذ إن الشاعر حسب

المرويات الجاهلية يعتريه ما هو غير طبيعي على الرغم من أنه طبيعي أي بالمستوى العقلي السوي، فكيف إذا كان مع ما يعتريه علاوة على جنونه.

ويأتي القرآن الكريم بعد عرض ما يقولون لعرض موقفه الرافض لدعوتهم، التي تحاول التأثير على عقول المُنقادين إليها بأننا نتعامل مع شاعر، وأن القرآن نصه الذي يُسطر فيه شعره، لذا جاء النفي في قوله تعالى: "وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ"[1]. إذ ثمة قائل آخر ينفي صفة الشاعرية، أي أن القرآن ليس بقول شاعر، وبالنتيجة هو ليس شعراً، فمكة كلها تعرف عن محمد أنه لم يقل الشعر ولم تسمعه ينشُده، وقد دُعم هذا الموقف بالآية التي يطرح فيها تبارك وتعالى مسالة تعليم الشعر بقوله: "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ"[1]. فنرى أن عدم التعليم لم يكن مرهوناً بزمن إختياره حاملا ً للرسالة، إنما في المرحلة التي سبقت هذا، وهذا من إعداد الخالق وإعجازه ليقول لهم على الرغم من أن بيئتكم تعج بالشعر والشعراء إلا أننا حفظناه من التأثير، إذ إننا نعده لأمر يحتاج أن يكون خالياً فيه على المستوى الذهني والنفسي ليكون بعد ذلك ما سنلقيه في سمعه أكثر ركوزاً وأشد تأثيراً، ولا يختلط مع شيء آخر، فنحن مصدر الرسالة لم نعلمه إياه، وهو حاملها لا يسمح لنفسه بذلك، فما الذي تبقى إذا كنا المصدر في التعليم ولم نعلمه وبوصفنا كذلك فنحن أعلم منكم بما يقوله إنه قرآن واضح لا لبس فيه ، ولا يشبه ما تنسجون وتصفون بشيء.

وفي سورة الشعراء في قوله تعالى "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ* " [1] يُعرفنا الله عز وجل لمَ الكثير من الشعر مذموم، إذ إن من تأثير قائليه كأنهم صاروا أئمة لغيرهم إذ إن لهم تبعاً وهؤلاء غاوون، لأنهم لا يتبعون الحقيقة ولا من القول حَسَنه، وبالتالي يكون عدم تمييز الحقيقة وصدق المقول يجعلهم مُتنقلين بين ما يطرح الشعر من أفكار تصور الأشياء كما يريدها لا كما هي، وكان التشبيه البلاغي البليغ في أنهم يهيمون وبالتحديد في الوادي كمكان مع أننا نفهم أن جغرافية المكان ذات طابع صحراوي ، فلماذا الوادي ؟ منها سنستذكر لأن مكة وصفت بنها بوادٍ غير ذي زرع[1]، وهي محط قريش ومكان سُكناها فهل هم تائهون عن الهداية، ذاك لأن الوادي ما يقع بين جبلين يُضللانه وتكون الرؤية عسيرة وكأن عدم التمييز يجعلوه هائماً، وكان ثمة ارتباط في العقلية العربية في جاهليتها بين وادي يُسمى عبقر وبين قول الشعر وهذا وادٍ آخر يهيمون فيه ، وبالتالي إن عدم الثبات في القول يُبنى عليه التقلب في الفعل فهم يقولون ولا يفعلون ، فهل يا قريش عرفتي عن (محمد) ذاك هل كان الغواة يتبعونه ، هل عرفت عنه الخوض في صنوف القول ،هل نطق يوماً بغير الحقيقة ، كان قوله فعله ولا يفعل إلا ما يقول ، إن سيرته المحمودة قبل بعثته كانت إحدى أهم المرتكزات لدرء التهم التي وجهت إليه